الفصل الأول

المـــــــــازنى
صـــــورة حـــــياة

أن يكون الحديث عن المازنى صورة حياة خيـر من أن يكون ترجمة حياة نتحرى فيها وقائع التاريخ وأحداث الواقع ، وما الخير فى ترجمة تعنى بذكر المولد والوفاة لشخصية ما، ومراحلها التعليمية وغيرها من المراحل التى اجتازتها طوال حياتها ، إن لم تعن بالمراحل النفسية والفكرية للشخصية المراد دراستها .

أجل . . نحن لاننكر مـا لدراسة هذه المـسائل التـاريخيـة من الأثر فى تبيـان الأطوار النفسية ، ولكننا ننكر التعويل عليها كل التعويل ؛ لأننا إذا اكتفينا بها فإنما نقـول كلامًـا لايحسن السكوت علـيه كـما يقـول النحاة ؛ وخـاصة فى دراسـة الشخـصيات ؛ وتبـقى صورة الشخـصية المدروسـة مصابـة بالخداج والمسخ الذى لايجدى معه تأريخ .

ولأن يكون المازنى صورة حياة خير له وفاقًا مع طريقته المحببة إلى نفسه ، فكل حديث فى كتاباته عن شخصيتـه - وما أكثره - إنما هو من قبيل رسم الصورة التى وكدها فى الحقيقة ترجمة باطنية ، لاتخفى فيـها خالجة ولاهاجسة يرسلها متشحة بروحه وطريقـته فى المبالغة ، وعـدم المبالاة بأحداث الواقع كمـا هى ، وإنما كان يراها بروح الفنان الأصيل المبدع .

وطريقـتنا فى رسم هذه الصـورة هى اتخـاذ التاريخ وعـاءً وإطارًا للصـورة ؛ لانتحرى فيها ترتيب الوقائع والأحـداث إلا بقدر مايعين على إتمام الصورة وجلاء بعض ملامحهـا ، ورب حادثة صغيرة لايلتفت إليهـا أعون على أداء هذه «المهمة» من جلائل الأحداث وأعـاظمها ، لأن المحك هنا ليس الضخامـة والصغر ؛ وإنما المحك أن الحدث لايعنى بـه لذاته ، وإنما لأنه يضيف لونًا لألوان الصـورة تشحب بغير إضافته إليها ؛ ولعلنا نستبدل بكلمة «يضيف» كلمة «يدخل فى تكوينها» ؛ إذ

هى أبين وأدق لما نقصده .

وسنحاول أن نعنى بإبراز لون فى الصورة يخدم هذا البحث ، ويحاول أن يلقى بعض الضوء على ماكتبه من شعره ، لأننا نهتم هنا بشاعرية المازنى ، فصورة حياة المازنى ومانرصد فيها من شيات وملامح إنما هى وسيلة لتوضيح جوانب حياة المازنى الشاعر ، فلكل لون فى الصورة مرماه الذى يتوخاه ، وإن كنا لانؤمن بهذا الفصل التعسفى بين جوانب الحياة لدى الشخصية الواحدة . . فالمازنى الشاعر خدن المازنى الكاتب والقصاص والإنسان قريب حين تنظر من قريب ، وإن كنا نقدم شاعريته على جوانب ملكاته الأخرى؛ لأن «الشاعرية قدرة على استكناه النفوس والأشياء والتعاطف معها ، ونظرية شاملة للكون والحياة ، والتعبير عنها بعمق وبساطة» (١)، وهذه السمات واضحة فى كل كتابات المازنى شعرًا ونثرًا .

وسبيلنا فى استقصاء جوانب حياة المازنى ماسطره قلمه وماكتبه عنه الآخرون . والمازنى من أكثر الأدباء - عندنا - حديثًا عن نفسه وشخصه إن لم يكن أكثرهم ، وهذه التراجم التى يكتبها أصحابها سلاح ذو حدين - كما يقولون - فينبغى أن تؤخذ بحذر ، وبخاصة لدى المازنى ، لا لأنه ظنين فيما يقوله ، ولكن لغلبة الفنان فيه على المؤرخ ، ولأن ترجمته عن نفسه لايتحرى فيها الواقع كما هو ، بل إنه يرسم صورة حياة ، وهذا ما حدا بنا إلى اختيار هذا الاسم لهذا الفصل وفاقًا مع منزع صاحب الصورة ، وقد أحس المازنى - حتى فى أمس كتبه بترجمة حياته - بهذا الإحساس ، فقال : «هذه ليست قصة حياتى ، وإن كان فيها كثير من حوادثها ، والأولى أن تعد قصة حياة» (٢) .

فهو فى حرج من أن يقول إن هذه قصة حياته ؛ لأنه يدرك أن خيال الفنان تدخل فيها ، وقام بتوشيات يقتضيها السياق الفنى ، وإن تحرج دونها التاريخ بعض تحرج ، وهو محق فى هذه المقولة ، لأن التراجم الفنية تستدعى ترتيبًا خاصًا للوقائع والأحداث مراعاة لشروط فنية خاصة ، مما يبعد بها عن جو التاريخ كما وقع ، ونحن لانستطيع أن نقول على سبيل القطع الجازم والاعتقاد اللازب إن

(١) مجلة الثقافة ، نوفمبر ١٩٧٣م ، مقال للكاتب .
(٢) قصة حياة - المازنى ، دار الشعب ، ١٩٧١ .

شخصيـة العقاد هى كما تصورها قـصة «سارة» وشخصية توفـيق الحكيم هى كما تصورها قصة «عصفور من الشرق» ، وإن كـان فى تينك القصتين كثير من ملامح هاتين الشـخصـيتين ، لأن لـلعمل الفنى دخـلاً كبـيراً خطيـراً فى مسار الـوقائع والأحداث .

وعلى الرغم من أن المازنى مفرط فى الحديث عن نفسه كأنه فى حرج آثم إن لم يفض بذاته للقراء ، فقد حدث إغـماض فى تاريخ مولده ، وكأنما تأبى الأقدار إلا أن تخرج له لسانها ، كمـا أخرج لها لسانه ساخراً ومعابثًا ، غيـر مبال بها ، وقد يهون مثل هذا الإغماض فى العصور الخوالى نظراً للظروف الحضارية المحيطة بها ، أما أن يحدث فى العصر الحديث فهو أعجوبة تضاف إلى الأعاجيب المازنية ، التى شاءت أن تستـقبل الحياة أول مـرة ساخرة منها غـير ملقية بالاً حتى إلـى تسجيل التاريخ ، وسخراً من الخلود الذى يشغف به أبناء الفناء .

«ولد المازنى فى ١٩ أغسطس عام ١٨٩٠ وتوفى ١٠ أغسطس ١٩٤٩ (٣) » .

«ولد المازنى فى ١١ من يناير عام ١٨٨٩ وتوفى فى أغسطس عام ١٩٤٩ (٤)».

« ولد المازنى سنة ١٨٨٩ (٥) » .

فـالاتفـاق واقع فى تاريخ الوفـاة ، وقد حـقـقت هذه المسـألة بالرجـوع إلى الدوريات الصـادرة فى تلك الأيام ، وراجـعت المقالات التى كـتـبهـا الأدباء يوم وفاته، ورجعت إلى ابنه الأستاذ محمـد المازنى ، فقال : إن والده مات فى الشهر الذى ولد فيه وهو أغسطس ، ولكنه لم يحدد يومًـا للمولد ، وإن كان قد أكَّد أنه ولد عام ١٨٨٩ .

«إبراهيم عبدالقادر المازنى» وللأسماء نصيب فى دلالتها على أصحابها ، واسم «إبراهيم» من الأسـمـاء التى وافـقت هوى مـسـمـاها ، ومن السـهل تحـويره إلى «أبوخليل» كـما ينطقـها أولاد البلد فى الأحـياء الوطنيـة للدلالة على من اسـمه إبراهيم ، وهى من مصـادفة التـسميـات وإن سبقـها دليل مضـمر فى إهاب هذه

(٣) إبراهيم المازنى للدكتور محمد مندور ، ص١٦ ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٤ .
(٤) مجلة الثقافة ، عدد ٦٠٢ ، مقال لعبد السميع المصرى .
(٥) أدب المازنى ، د. نعمات أحمد فؤاد ، عام ١٩٥٤ .

الشخصية انعكس على طريقتها فى الحياة وفى معايشة الناس ، فقد قضى حياته فى الأحياء الوطنية ، وظلت فترة الطفولة ، التى قضاها فيها ، ترفد ذاكرته وخياله بمدد وافر خصيب تضمنته كتبه وأقاصيصه .

ويستطيع الكاتب عن الشخصيات أن يتخيل لشخصياته أعمالاً غير التى يعملونها ، ولكن الخيال يضيق أن يتخيل للمازنى مهنة غير مهنة الأدب . . فقد كانت صلته به «صلة نذر وقسمة ؛ علم منذ صباه الباكر أنه يهوى الكتابة وصناعة القلم ، ولكنه علم أنها صناعة لاتجدى على صاحبها شيئًا فى معيشته ، فخيل إليه أنه قادر على أن يعطى الأدب حقه ، وأن يعطى مطالب المعيشة حقها ، فلم يلبث غير قليل حتى تبين له أنه للأدب وحده ، وأن الأدب يلاحقه أينما ذهب فلايتركه حتى يعيده إلى جواره» (٦) .

والدلائل على صحة هذه الفكرة كثيرة ، فقد تطلع المازنى إلى صناعة الطب بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية أسوة بذوى قرابته ، ولكنه ما إن دخل صالة التشريح حتى أغمى عليه ، وكان آخر عهده بها «فولى وجهه نحو مدرسة الحقوق، وكانت مدرسة الحقوق يومئذ أجهر المدارس العليا صوتًا وأكبرها شأنًا ، وفيها لصاحب القلم متسع ، وبين طلابها كثير ممن يكتبون وغير قليل ممن ينظمون أو يطربون للمنظوم ، ولكن أرواح المعبد وجنوده تجتذب أديبنا إليها وهو على أبواب المدرسة فقد زيدت مصروفاتها فى تلك السنة من خمسة عشر جنيها إلى ثلاثين جنيها . . ولم يكن أديبنا فى يسر من رزقه فعدل عن مدرسة الحقوق إلى مدرسة المعلمين» (٧) . وعمل بعد تخرجه ١٩٠٩ مدرساً ، ولكن قيود الوظيفة ضاقت به، أو ضاق بها ، وحدثت ضده بعض الوشايات فاعتزل التدريس وعمل بالصحافة وكانت هى ملاذه الوحيد لكى يكتب بحرية ، وكما يشاء .

ومن هذه الدلائل الموحية - لا الجازمة - كرهه للارتباط بالأحزاب ونفوره منها «يكاد - أى المازنى - يستقل عن الأحزاب فى تفكيره وآرائه ، ومن أجل هذا كان يرحب بمقالاته أصحاب الصحف المختلفة فى المذاهب المتباينة فى المبادىء» (٨) .

---

(٦) بعد الأعاصير للعقاد ، ص١٣٩ ، دار المعارف ١٩٥٠ .
(٧) المرجع السابق نفسه ، ص١٤٠ .
(٨) مجلة الثقافة ، العدد ٥٥٥ ، مقال لأحمد أمين .

ويقـول كاتب آخـر «ومع أنه كـان - أى المازنى - فى معظـم الأحيـان يكتب فى صحف حزبية . . فإنه لم يتأثر إلا فى القليل النادر بالنزعات الحزبية الجامحة (٩)».

كل هذه أدلة تشير إلى أن الأدب استأثر به واسـتولى عليه مما يؤيد تصورنا لمهنة المازنى فى الحـياة ، ولايعتـرض بأن الكتابة للأحـزاب كتابة عـلى كل حال ؛ لأن الأديب الصادق ، أو لأن أديبًا مثل المازنى لايستطيع أن يفلت من نياط حريته التى تغل منها قيود الوظائف والحزبية ؛ ولأن الأدب فى مفهوم المازنى - أو الشعر على وجه خاص - إذا ارتبط بالأحـزاب وعبر عن أهدافها وأغراضهـا صار أدبًا زائفًا إن لم يمتح صاحبه من نفسه وهذا لايتيسر لكتاب الأحزاب فى كل الحالات .

يقول المازنى : «لقد تركت وظائف الحكومة لأنى لا أطيق القيود ، فكيف أقيد نفسى بأغـلال الحزبية الثـقيلة . . إنى اليـوم حر أكتب مـا أشاء وأقول للمـحسن أحسنت وللمسيء أسأت فدعنى بالله من هذه القيود وتلك المظاهر (١٠)» .

ويكاد يكون المظهر الذى حدث له فى قاعة التشريح أدل على تمكن الأدب عنده من بقيـة المظاهر الأخرى ؛ لأن بواعثه كـامنة فى أعماق اللاشعـور أما الأخريات فمـعلومة البواعث ، ولايصح أن يقـال بأننا نفسر الأعـمال بعد حدوثهـا واتضاح أسبابها ، فـإن استنادنا إلى ماحدث له فى مطالع حيـاته على أبواب مدرسة الطب يفند هذا الاعتراض ؛ حيث لم يكن للأدب استـيلاء ظاهر على نفسه إلا من قبيل الشعور الغامض الذى تشام بوارقه الخفية إلى أن يحين أوان ظهورها ، ولايقال إن المسألة مسألة أعصاب تتحمل وأخرى لاتتحمل ، فإن الاحتكام إلى الأعصاب يؤيد ما ذهبنا إليه ولاينفـيه ، وهل كان الاشتغـال بالأدب إلا مجابهة للحيـاة بأعصاب عارية لاتجمد فى صمم البلادة ، وهل كان المازنى إلا حاد الأعصاب عاريها ؟ .

ملامح خلقية وسمات نفسية :

نقصد بهذه الصفـات مايشكل تضاريس هذه الشخصية ؛ بحيث تبـين ملامحها فى أدبه وبخاصة شعره ، وسوف نحاول الإتيـان بالشواهد الشعرية ما أمكن لجلاء هذه الصورة .

---

(٩) مجلة الثقافة ، العدد ٥٥٥ ، مقال بتوقيع (ع) .

(١٠) الثقافة ، عدد ٦٠٢ ، مقال لعبد السميع المصرى .

وقد أخذ الفقرة من مقال لأحمد المازنى بالهلال ، ولم أستطع العثور على المصدر الأصلى .

وقد كفانا المازنى مشقة وصفه الجسدى فضلاً عن التصوير «الفوتوجرافى» ، الذى يكفل للناظر أن يتوضح معارف الوجه والأعضاء ، ولكن التصوير لا عمل فيه للمخيلة والتلقائية اللتين ينهض بهما الوصف الأدبى ، وهو مايتوافر فى كتابات المازنى فى حديثه عن صفاته .

ليس للمازنى حظ كبير فى قسامة وصباحة «كان أخى أصغر منى ، وكان جميلاً مشرق الديباجة سمينًا وبضّا غضّا ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه العين، ومن هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده»(١١). فى تلك الحالة التى لايدخل أخوه الأصغر على الأب ، كان يسمح لإبراهيم بالدخول مما جعل إحساسه بعدم الوسامة يتضخم حتى ترجمه شعرًا يقول فيه :

انظر إلى وجهى الشتيم اللعينْ ... واحمد على وجهك رب الفنونْ
أحسب أن الله ما صاغنى ... كذاك إلا رغبة فى المجون
لو كنت للناس إلهًا - إذًا - ... كنت بنفسى أول الكافرين
بل كنت أعنو للذى صغته ... كما عنا زوس الإله الفطين
ما ذنب إخوانى أرميهمُ ... بصورة شنعاء تقذى العيون
لم أُلفِ من بينهم واحدا ... يُعيرنى رونقه والفتون
ياليتهم بالحسن يعدوننى ... لما غدوا يذكون وقد الحنين
مزيتى ، لا الحسن أُزهى به ... كلا ، ولاشعرى السخيف الهجين
ولاثراء المال أوصيته الخاوى ... ولا الفضل الصريح المبين
لكنها الإخلاص لو أنه ... يكون لى يوما شفيعى المكين(١٢)

وقد تعمدنا أن ننقل القصيدة برمتها لأنها وصف وحسرة على ما فاته من حظوظ فى هذه الدنيا ، وليس له شفيع غير الإخلاص لو كان فى يوم شفيعًا

(١١) قصة حياة المازنى ، ص١١ .
(١٢) ديوان المازنى ، ص٢٨٠ ، المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٦١ .

مكينًا، وبالتجاوز عن «الحالة الشعرية» يبقى الصدق فى الوصف والإخلاص فيه ، ومحاولة تقصى هذا الوصف فى كتابات المازنى النثرية شىء عسير فضلاً عن ندوده عن خطة البحث ، وإن كنا سنحاول الاستئناس بها بحسب المقتضيات ، وإلحاح المازنى فى الحديث المفرط من عيوبه دليل على تأرقه منها ، ومحاولة للتنفيس والاستعلاء عن طريق البوح والبث ، ومحاولة أيضًا للرضى عن النفس أو ترضيتها ، وسينسحب هذا الحكم على نظائره فيما يلى من حديث .

يقول المازنى : «ومن دلائل الرضى عن النفس ، على الرغم من الإحاطة بعيوبها والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أنى أستخف بهذه العيوب» ولاأبالى أن أذكرها، ولا أعبأ شيئًا إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها ، وإنى لأدرك بعقلى أنها نقائص ومذام ، ولكنى أرانى أتخذ أحيانًا من المعالنة بها مفخرة ومحمدة ؛ ولست أستخف بها فى الحقيقة ولكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لايكربنى أمرها ، ولأظل محتفظًا بحبى لنفسى ورضاى عنها وغرورى بها وحب النفس من حب الحياة (١٣) .

وتذكرنى قصيدة المازنى السابقة بوصف ابن الرومى لوجهه - وهو من أكثر الشعراء حديثًا عن نفسه - يقول :

شغفت بالخرد الحسان وما ... يصلح وجهى إلا لذى ورع

كى يعبد الله فى الفلاة ، ولا ... يشهد يوما مساجد الجمع(١٤)

وليس معنى هذا التذكر أن المازنى نظر إلى ابن الرومى ، وإنما هو اشتراك فى التعبير عن وجه كل منهما الذى ابتلى به كلاهما ؛ وتبقى بعد ذلك لكل طريقته الخاصة .

بقصر فى القامة . . وضآلة فى الجسم . . وبنيان وهنان دلف المازنى إلى الحياة، «ثم حدث أن كان يتسلق ليأتى امرأته الأولى بدواء من صندوق معلق بالحائط فسقط وأصيب فى ساقه إصابة خلفت به عرجًا ، وإن يكن خفيفًا إلا أنه

---

(١٣) مجلة الرسالة ، عد ٢١٠ ، مقال للمازنى .

(١٤) ابن الرومى للعقاد ، ص٢٩٦ ، ط خامسة ١٩٦٣ ، المكتبة التجارية الكبرى .

لم ينسه طوال حياته» (١٥) .

وهذه الصفات استأثرت بسهم وافر من كتابات المازنى ، وأكاد أقول إن القارىء لايقرأ له وصفًا قلميًا تسنح فيه فرصة لذكر هذه الصفات إلا اهتبلها كأنه يأثم إن تركها ، ولابأس من إيراد بعض الشواهد لنرى مدى توغل هذه الأمور فى غور سحيق من أغوار نفسه ، ولكن المازنى بطريقته يحيل هذه المذام إلى مادة أدبية تطهر جراحه ، وتأسو كلومه ، ولعل كتابات المازنى عن ابن الرومى وتعاطفه مع وهنه الجسدى وضآلته تشعرك أنه يتحدث عن نفسه أو أنه من قبيل التأساء الذى تتطلع إليه النفس ، حين تحدق بها سوانح ألم أو يأس ، يقول المازنى فى معرض الحديث عن نفسه : «وقادنى إلى الشرطى وهو شىء ضخم جدًا ؛ وأنا شىء ضئيل جدًا أو كما يقول ابن الرومى :

«أنا من خف واستدق ، فلا يثقل أرضًا ، ولايسد فضاء» (١٦).

ويقول : «ثم فتقت لى الضرورة حيلة ، فنحيت الحقائب عن الشبكة الممدودة لها فوق رءوسنا ، ورقدت مكانها ، ونمت أهنأ نوم إلى الصباح ، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لى ذلك فالحمد لله على الضآلة» (١٧) .

ويصفه أحد الكتاب فيقول : «والمازنى ضئيل فى كله ، قليل فى حجمه لو رميت به فى مقلة نائم لم ينتبه ، أو لو قذفت به بين شفتى تلك التى يدمى بنانها لمس الحرير ماتعدى أن يكون قبلة على ذلك الثغر» (١٨) ، والنص الأخير نقف عند لبابه فقط ونضرب صفحًا عن الوصف الأدبى .

ولدينا طرفة يرويها العقاد عن المازنى فيقول : «كنا نمشى معًا ، ونهبط الدرج معًا ، ولا أكتمكم أنه منظر يغرى الكبار المتوقرين بالابتسام فضلاً عن الصغار اللاعبين ، ولكنهم كانوا يغضون عنا ،ولايذكروننا بأسمائنا وإنما يتساءلون هل جاء

---

(١٥) إبراهيم المازنى . د. محمد مندور ، ص٣٢ .
(١٦) سبيل الحياة المازنى ص٤٤ ، وهذا البيت يردده المازنى فى نثره كثيرًا .
(١٧) المرجع السابق ص٤٠ .
(١٨) السياسة الأسبوعية ، ١٣ سبتمبر ١٩٣٠ ، مقال ليوسف حنا .

العشرة ؟ هل خرج العشرة ؟ فإن قيل لهم نعم خرجوا قالوا : الحمد لله [١٩]» . يقصدون أنه يمثل - لقصره وضآلته الصفر فى حين يمثل العقاد لطول قامته - الواحد .

وبين يدى شواهد أخرى ، الإتيان بها من قبيل تحصيل الحاصل ، والتضخم الذى لايفيد فحسبنا ما أوردناه .

أما مسألة ساقه المكسورة فنحسبها تركت جرحًا غائرًا فى أعماق هذه النفس الحساسة ، وكأنما لايكفى الأقدار أن تخرج إلى الحياة رجلاً قصيرًا وهنان البنيان ليس على حظ كبير من القسامة حتى تضيف إليه العرج ، كل هذا مع نفس طامحة متوثبة ، وفكر جامح نشيط :

ويح النفوس التى تطير بها هماتها ، حين يسخر التعب[٢٠]

ولاينسى المازنى ساقه المكسورة أبدًا ، يقول : «فأنا مثلاً إذا وجدت واحدًا ينظر إلى الأرض قريبًا منى لم أشك فى أنه يتأمل ساقى المكسورة العرجاء [٢١] ، ويقول فى موضع آخر : «وكنت جالسًا على حافة السجادة ، وساقاى ممدودتان أمامى كأنما يمكن أن أمدهما ورائى ، وظهرى إلى مؤخرة إحدى السيارات ، فإن إحدى ساقىَّ مهيضة ، فليس فى وسعى أن أجلس كما يجلس خلق الله» [٢٢] .

ولو أننا ذهبنا نستقصى إشاراته إلى مسألة عرجه فى كتبه لخرج بنا البحث إلى متاهات ؛ لأنه قلما تسنح سانحة إلا ذكر هذا الظلع ، كأنما يحاول أن يتخفف من إصر آده وأثقله ؛ ومعنى ذلك أن لهذا الظلع أثرًا بعيدًا فى نفسه وأدبه خلافًا لما قاله العقاد ، فيما ترويه عنه السيدة نعمات فؤاد من «أن إصابته بالعرج لم يكن لها فى نفسه وخلقه وأدبه أثر ذو بال ، أو على الأقل الأثر الذى يقدره المرء لها [٢٣] ،

---

(١٩) مقدمة العقاد لكتاب سبيل الحياة للمازنى ، ص٦ .
(٢٠) ديوان المازنى ، ص٢٣٨ .
(٢١) سبيل الحياة - المازنى ، ص٥٩ .
(٢٢) الرسالة ، عدد ٢١٢ ، مقال للمازنى .
(٢٣) أدب المازنى - نعمات فؤاد ص٦٨ .

ولعل العقاد يقصد الأثر السيء فى نفس المازنى بأن تجعله هذه الآفة حقودًا شريرًا نزر الخير أو معدومة ، فإذا كان مقصد العقاد هذا فهو صحيح ، ولكن هذه العاهة خلفت فى نفسه مرارة نجدها بارزة فيما كتبه ، وفيما نقله عنه العقاد وترويه نعمات فؤاد ، ونجدنا فى حل من إيراد الرواية برمتها تقول :

«وذكر لى - أى العقاد - أن الحادثة الوحيدة التى آلمت المازنى بسبب هذه العلة وقعت أمامه فى مقهى "solt" وكان هذا المقهى من معاقل الثورة المصرية ، إذ كان منتدى لكثير من باعثيها والمحركين لها ، وكان من عادة الصديقين المازنى والعقاد أن يرتادا هذا المقهى ، وكان المازنى يحلو له أن يروق النساء ويحسن رأيهن فيه ، وكانت تبيع الحلوى بالمقهى فتاة أجنبية ، فأخذ المازنى يتودد إليها ويتعمد رسمها حين تمر به ليستنطقها ويغريها بالحديث ، وكان بالمقهى فى ذلك الوقت إبراهيم «بك» زكى ، وكان ثريًا يملك سيارة فى وقت لم تكن السيارات فيه شائعة ، فكان امتلاك سيارة دليلاً على الثراء العريض ؛ وكان ممشوق القد ، فلاعجب أن تستجيب بائعة الحلوى إلى من له مثل هذه الصفات ، وتلبى طلبه إلى الرقص ، وكان حاضرًا بالمجلس الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى (وكان السكرتير الشرقى للمفوضية الألمانية بالقاهرة) ولاحظ تأثر المازنى لإعراض الفتاة عنه وميلها إلى صاحبه ورقصها معه فقال للمازنى مازحًا : (هو يرقص معها وأنت احجل لها) فوقعت الكلمة من نفسه وقع السهام وغام وجهه واكفهر ؛ وظل من كربه ساعة بعدها لايتعلق بحرف واحد من فرط التأثر» (٢٤) .

وقد اضطررنا إلى الإتيان برواية نعمات فؤاد على ركاكتها الواضحة فى الصياغة، ويبدو ذلك فى تكرارها لكلمة «كان» . لكن يبقى بعد هذه الملاحظات العارضة أن العقاد يحاول أن يدافع عن صديقه بأن إصابته بالعرج لم يكن لها أثر ذو بال مجاملة لذكرى صديقه الحميم ، على حين أن المازنى نفسه يعترف بعيوبه كلها فى شجاعة نادرة ، وبغير مبالاة بشرط ألايجرحه أحد وهذا ماحدث فى المقهى ، فضلاً عن أن الجرح حدث فى ميدان الحظوة لدى النساء ، وهى طعنة نجلاء لأنها تستهدف الفطرة البشرية فى أغوارها ، وناهيك بما تحدثه فى نفس رجل

(٢٤) أدب المازنى ، نعمات فؤاد ص٦٨ .

حساس كالمازنى الذى يعتقد - لو أنصفت الطبيعة - أن له من الصفات مايخول له أن يحظى بما ترجوه نفسه ودعك من الثراء والوجاهة ، ولعل فرط التأثر الذى بدا على المازنى فى ذلك الوقت ، هو الذى جعل العقاد يروى هذه الحادثة على أنها الأثر الوحيد فى حين أن العاهة هذه تفعل فعلها فى نفس المازنى ، وإن كان يغلفها بغلاف التهكم والاستخفاف .

ويخيل إلينا أن هذه العاهة - لأنه أصيب بها بعد فترة من عمره - خلفت فى نفسه مرارة مالحة أكثر من كونه قصيراً وهنان البنيان لأنه جاء إلى الدنيا بهما على حين أن الظلع لاحق بهما ، ولذلك جاء ذكر هذا الظلع فى شعره فى الجزء الثالث من ديوانه وهو بعد عام ١٩١٧ . . وسنحاول أن نورد من شعره مايؤيد ماذهبنا إليه . يصف منظره ، وكيف أنه أصبح كنز عظات :

إذا نظرت إلى كادى شبيبته أعطاك كنز عظات فيه منظره[٢٥]

وفى وصية له على مثال وصية «هاينى» الشاعر الألمانى ، يوصى المحبوب بما يلى:

وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى وبالدمع لايرقا ، ولاهو هامر

وبالجدرى فى وجهه ليزينه وبالعرج المرذول ، والله قادر[٢٦]

وله قصيدة هجاء نحا فيها منحى ابن الرومى فى نسج الشعر وفى استقصاء المعانى ، نضطر إلى أخذ فقرة طويلة منها ؛ لأنها تدل على المقصود ولأن فيها قصة لايجوز الاجتزاء ببعضها ، يقول :

سيقول اللعين قزم يلاقيك بساق عرجاء ، ذات التواء

إن أكن قزمة ، فإن قوافىّ طوال جداً بغير انتهاء

كل ذى عاهة ، ولاشك جبار ، فحاذر من رجلى العرجاء

كان تيمور أعرج الساق فافطن لمعانى العاهات والأدواء

وتأمل مثال مانحن فيه ، قصة سقتها عن القدماء

---

(٢٥) ديوانه ، ص١٢٤ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص٢٣١ ، ويعلق المازنى فى الهامش بقوله : جرى العرج ببالى لأنى أنا أعرج .

زعمـوا أن معشـرًا ، ركبوا الماء ، وحـثوا سفـينهم بالغناء
ورآهم قـزم فنادى مـهيبًـا أن دعونى أكن مـن الشركـاء
أنا قزم كـما ترون ، فلاتخشـوا زحامى مجـالس العظماء
فرضـوا ، وانبـرى إليه سـفيـه ، حسب الفـضل كله فى الرياء
ذو لسـانين - بـل بوجـهـين مـلاق ، ووجـه يعـيب بالإيمـاء
يتلقـاك خـاشـعًـا باسم الثـغـر ويلقى حـبـائل الحـقـراء
وإذا ماسـمعتـه ، قلت سبـحانك ربى ذا أوحد الفـضلاء
وإذا مـــابلـوته لم تصـــدق أنـه ينتـــمـى إلى حـــواء
ورآه القـصـيـر يضـحك منه حـاسبًـا أنه من الأغـبـيـاء
وإذا بالسـفين جـاش بها التـيار ، والقـزم آخذ فى النمـاء
وأحس الرفاق بالضـيق حتى عالجوا غـمرة الردى والفناء
وأخونا القصـير يكبر أضعافًا ، ولكن عن صـحة وامتلاء
وانثنى سـائل يقـول مـن العـمـلاق إنا من كـربه فى بلاء
قال كنت القصير قدمًا ، فأما الآن فالضخم هائل الأنحاء
ذا مـثالى ، لو كنت تـفهم ياغـر ، ولكن حـرمت فضل الذكـاء
ذا مثـال العظيم يظهر فى الناس ، ويمـضى بأوفر الأنصـباء[٢٧]

وهذه الفقرة من القـصيدة - وإن كانت طويلة بعض طول - إلا أنها مـهمة فى الإبانة عن صفات المازنى برمـتها من ظلع وقصر وضـآلة ، وكيف أنه على الرغم من ذلك عملاق يسد الفضاء ، وعظيم يغـالب العظماء ، وكيف أن إحساسه الحاد بهذه المذام جعله ينفضها عن كاهله فى هذا النسيج الفنى الجميل .

وإحسـاس المازنى بعدم القـدرة ، وشدة الوهن جـعله يأسى على قـوة الإنسان وقدرته حين تكون فى إهاب ضعيف ، وأصبحت المسألة عنده مسألة عامة :

فقد القدرة الإنسانية ، وثراء فاحش فى الأمانى والأحلام ، وعجب عاجب من

(٢٧) ديوانه ، ص٢٤٠ .

الأقدار :

أعجب للحظ هل مقسمه ... أراده - ويلنا - أعاجيبا
أجزل من سهمة الرجاء لنا ... فكل شيء نراه مطلوبا
لكنه قد أخس قدرتنا ... ياليت ماشاء كان مقلوبا
غنى أمان ، وفقر مقدرة ... فلن ينال الفؤاد مرغوبا [٢٨]

والمازنى يتنفس من خلال الإنسانية كلها ، والذى يعنينا هنا هو فقر المقدرة وإخساسها، وهذا المعنى يلح على المازنى فى كثير من شعره ، وبخاصة بعد إدبار شباب وهنان ، وإن كان لإحساسه الجارف بذمائه اليسير دعاه شبابا ذا أشر :

أصبت فى العزم لا الشعور ، فإن ... أدرت لحظى فى الشيء لم يدر
وإن مددت اليدين خانهما ... عزم الشباب الجرىء ذى الأشر [٢٩]

ولكن المازنى يمتلك عينين هما أقوى مافيه ، وهو يحس بذلك عارم الإحساس، يصف فتاة صادفها فى الجبل فيقول : «وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق، فإن لعينيها نظرة تنيم الحية ، كما عرفت بالتجربة المرعبة ؛ وأنا قوى النظرة حادها ، وفى وسعى أن أحدق فى قرص الشمس ، ولكنى لم أستطع أن أحدق فى وجه هذه الفتاة العجيبة [٣٠]»، ويحكى عن نظرته ومدى تأثيرها ، وكيف أنها تخيف من حوله ، وبها يستطيع تنويم من ينظر إليه ، ومن حوادثه يقول : «إن زوجى دخلت على مرة وأنا مضطجع أفكر ، فوقفت أمامى لحظة، وأنا من ذهولى لا أراها ، ثم خرجت مضطربة فزعة تقول إنى «أزغر» لها، ومنها أن تلاميذ لى - أيام كنت مدرسًا - كانوا إذا بادلتهم النظر لايطرفون ، ولايستطيعون أن يحولوا عيونهم عنى ، ومنها أن فتاة من أقربائى صاحت بى مرة «لاتنظر إلى هكذا فإنى خائفة» ، وما كنت أراها وأنا قاعد ، ولاكان نظرى إليها فيما أعرف أو أشعر[٣١].

(٢٨) ديوان المازنى ، ص١٨١ .
(٢٩) السابق ، ص٢٤٤ .
(٣٠) سبيل الحياة - المازنى ، ص٤٦ .
(٣١) المرجع السابق ، ص٧٥ .

وأرانا وصلنا الآن إلى إبراز صفاته الجسدية ومدى تأثيرها أو أثرها ، ولاشك أن هناك صفات أخرى ، ولكنا اخترنا ماهو بسبيلنا وماله مساس مباشر بهذه الشخصية .

والوقف عند الملامح الجسدية - كما لايخفى - وقوف على ملامح هذه الشخصية النفسية ، ولامشاحة فى مدى العلاقة القائمة بين النفس والجسد ، وليس ثمة حديث عن أى شخصية من هذا الطراز إلا استتبع حديثًا عند خصائصه الجسدية .

والكلام عن ملامح المازنى الباطنة سيكون مقصورًا على بعض سماته التى لها علقة قائمة بأدبه وحياته ، وليس من المفيد أن نسرد قائمة بهذه الملامح وتلك السمات ، وإنما المهم هو استشفاف ما وراءها .

حزمة من الأعصاب الدقيقة النسج فى إهاب واهن ، صادفت من الأزمات النفسية والفكرية ماسبب لها نوعًا من الاختلال ، فقد أصيب صاحبها «بالنوراستانيا» نتيجة ترديه فى أحد المقابر وهو عائد ليلاً ؛ وملامسته لجثث الموتى أو ماتوهمه جثثًا ، وهذا شىء يسبب الخلل ، إن لم يكن الجنون لمن كان لأعصابه مساك فضلاً عن من له أعصاب عارية . . يتحدث المازنى عن إصابته بهذا المرض فيقول : «وكانت النورستانيا فى أول الأمر خفيفة محتملة ولكنها تفاقمت على أثر سقوطى فى ظلمة الليل فى قبر خرب تعلقت بى فيه العظام النخرة ، فخرجت منه حين خرجت بوجه ميت وأعصاب مخبول ، وصرت بعدها أتوهم الموت فى كل شىء حتى لكنت أدعو أهلى أن يحفوا بى ويمسكونى ؛ لأنه كان يكبر فى وهمى فى تلك اللحظات المشئومة أن شيئًا مرعبًا سيحدث لى ويجرى علىَّ ، وأن قوة مخيفة (٣٢) ستخطفنى» .

ويخيل إلينا أن هذه الأعصاب كانت على استعداد للخلل ، ولو لم يقع لها هذا الحادث - فمثل هذا الحادث ضاعفه - لأن صاحبها بتوهمه وبما يخلقه الخيال النشيط فى أزمة دائمة .

---

(٣٢) سبيل الحياة ، الدار القومية للطباعة والنشر - دون تاريخ ، ص٥٢ .

ويغلب على أصحاب هذا المزاج تضخيم الأمور وتهويلها ، وسوء الظن بالناس، والتفكير المرعب فى الموت ، والتشاؤم الذى يلف بعض هذه النفوس فى حنادسه ، والاستخفاف المر بما تواضع عليه الناس ، وفى وضعنا أن نتحدث عن المزاج المشائم لنتحدث عن المازنى .

ونحسب أننا لانأتى أمرًا إدًّا حين نقول إن هذه السمات تمثلت فى صاحبنا أصدق تمثيل وأوفاه ، وكل صفة سلفت من هاته الصفات يندرج تحتها أناس كثيرون مع المازنى ، ولكنه توافق مزاج لا توافق تفكير ، فضلاً عن أن المازنى أضفى عليها ثوبًا مازنيًا لايخطئه الناظر .

وقد يعترض بأن تهويل الأمور وتضخيمها من ألزم الأمور لكل أديب يعينه عليها خياله النشيط ، وهذا صواب من جهة الشكل فقط ، أما أن ينقلب التخيل والتوهم إلى حقيقة يعيشها صاحبها ، فهو مايفند هذا الاعتراض «أحب الروايات لأنى أحب الأحلام ، وما أكثر مايحيرنى الأمر أذكره : أهو بعض ما اتفق لى أم بعض ماحلمت به [٣٣]» ، ويصرخ المازنى صرخة من يكربه خياله ، فيقول : «إن الخيال لعنة أو هو كذلك فى اعتبار أكثر الناس أو فى تجاربهم ، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال لأنه مزعج مقلقل [٣٤]» .

ويخطىء الدارسون حين يقفون عند ظاهر التشاؤم ليروا أن هؤلاء المتشائمين ضد الحياة ، ولايلمحون ماوراء العناوين . يقول بعض الدارسين «أما المازنى فقد كان مخلصًا طول حياته لفلسفة واحدة ، يتكامل فيها كل إنتاجه الأدبى من شعر ومقالة وقصة هى الهرب من الحياة . . .

والحقيقة أن موقف إبراهيم - الكاتب - هو موقف المازنى نفسه ، وهو موقف قوامه التشاؤم واليأس والهروب والفردية المغرقة والتفكير دائمًا فى القبر [٣٥] ،

---

(٣٣) السياسة الأسبوعية ، ٢٧ أبريل ١٩٢٩ ، مقال المازنى .

(٣٤) إبراهيم الكاتب ، ص٢٧٤ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ .

(٣٥) فى الثقافة المصرية ، محمود العالم وعبدالعظيم أنيس ، ص ص٧٣ ، ٧٤ ، دار الفكر الجديد ، ١٩٦٥ .

ويقول دارس آخر «ويخيل إليّ أن التشاؤم وسوء الظن قد خالطا روح المازنى ومشاعره ، وأصبح اليأس من الحياة ومن الناس إحدى(٣٦) طباعه المتأصلة فى نفسه والعواطف المنبعثة عن وجدانه ، حتى إنه ترجم هذه العاطفة شعرًا بلغ منتهى القوة مع ندرة الجيد من شعره ، فقال :

أكلما عشت يومًا … أحسست أنى مته

وكلما شمت خلا … وجدت أنى فقدته

ثوب الحياة بغيض … ياليتني مالبسته

إن هذه الأبيات البليغة التى تقطر أسى ومرارة تصور إلى أى حد أوغل المازنى فى التشاوم ، وإنى لموقن أن المازنى فى رأيه هذا قد تأثر إلى حد كبير بأبى العلاء المعرى حتى حاكاه فى كثير من أقواله (٣٧) .

ونستطيع أن نصرف النظر عن تخبطات هذا الدارس الأخير ودعاواه العريضة التى يسوقها بلهجة اليقين ، لنناقش مانحن بصدده عن حقيقة التشاوم والمتشائمين.

فالواقع أن هؤلاء المتشائمين ليسوا فاركين للحياة إلا لأنهم يريغون المثل الأعلى، ولأنهم أشد إحساسًا بالحياة وعطفًا على الناس وعامة الأحياء من رواد المجامع وأحلاس الزحام «وهم يرفضون الود الرخيص والود المزيف لأنهم أشوق إلى الود النفيس وأعرف بالود الصحيح (٣٨) ؛ وتشاؤم المازنى «لم يكن تشاؤم النفس الناضبة ، لايتصل بينها وبين الدنيا سبب من الفهم والشعور ، ولم يكن تشاؤم النفس الوضيعة لاتطلع على نبيل فى الدنيا ولاتود أن تطلع فيها على نبيل، ولم يكن تشاؤم الأنانية التي تريد احتجان الخير كله ، وتتهم الناس بالكنود لأنها هى لاتنطوى على غير الكنود ، ولكنه تشاؤم العاطف الذى يرثى للناس من عسف المقادير ؛ لأنه يحس تلك المقادير فى ذات نفسه ، ويحيط ميدانها بعطفه ، وينفذ إلى دخائلها نفاذ الوالد المشفق إلى دخائل قلب وليده ، ثم يتمنى لو لم تكن الحياة ، ولو لم يكن الأحياء .. لا ، لأنه يحب لهم الموت ، ولكن لأنه

---

(٣٦) هكذا فى الأصل ، والصواب «أحد»

(٣٧) مجلة الثقافة ، عدد ٦٠٣ عبدالسميع المصرى .

(٣٨) ساعات بين الكتب ، العقاد ، ص٢٦٦ .

obeikandi.com

يحب لهم حياة خيراً من هذه الحياة وأسلم من الوهم والشقاء [٣٩] .

ويعلل بعض الكتاب تشاؤم المازنى ويفسره بوضوح قائلاً : «وإنى لأرد تشاؤمه إلى نشأته يتيما ، وأرد تمرده إلى الوراثة وإلى ظروف جهاده وحيداً لنفسه ولعائلته التى صار ربها وولى أمرها منذ التاسعة من عمره ، فالتواء الحياة ولؤمها هو الذى بعثه هدامًا ، وأفسد ظنه بالخير ، لكنه لما كان خيراً بطبعه فنانًا بملكاته وتهذيبه وتجاربه ومرانه على الابتكار ، لم يجىء تشاؤمه خلواً من الشفقة والعطف . . فهو ينكر هذا أو ذاك لأنه يريد خيراً منه لخير الإنسان [٤٠] .

ونحن لانوافق الكاتب على إرجاع التشاؤم إلى نشأة اليتم وحدها ، وكثيرون من اليتامى ليسوا متشائمين ، ولأنها ليست إلا واحدًا من جملة عوامل منها التكوين وظروف الحياة ، قد تضافرت كلها على صوغ هذا المزاج المازنى .

وليس التشاؤم جموداً تجاه الحياة ، وكزازة أمام ظواهرها ، وبخاصة لدى أمثال المازنى ، وإنما «التشاؤم - كالتفاؤل - يكون مع الحب والاهتمام أو مع الظن الحسن والأمل المشبوب ، تجىء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولاً أو شبيهًا بمعقول ، أما إذا غلب اليأس من البداية فلاتشاؤم ولاإخلاف ظنون ، الذى يهجو المرأة يحبها كالذى يثنى عليها ، والذى يملأه الغيظ منها كالذى يملأه الشوق إليها - أما الذى يلهو بها فلا شوق ، ولا غضب ؛ ولافرح بلقائها ولاحزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ، ولكنه من طلاب الفراغ العابثين [٤١] .

وأثر الأحزان فى الآداب العالمية أنشد وأبقى من أثر الضحك ، لأن الأدباء طلاب مثل أعلى ، وناشدو كمال ، وهذه الدنيا الدنية - كما يقول ابن الرومى - هيهات أن تحقق لهم ماتطلعت إليه نفوسهم وطمحت إليه ؛ «وحتى القصص الفكاهية الممتازة يرسب فى أعماقها الحزن» [٤٢] ودعاة الأمل ، والقوة من الأدباء والفلاسفة لم يخل نتاجهم من أحزان وآلام ؛ لأن «التفاؤل الخالص دليل البلاهة

---

(٣٩) ساعات بين الكتب ، العقاد ، ص٢٦٥ .
(٤٠) السياسة الأسبوعية ، ١٣ يوليو ١٩٢٩ ، أحمد خيرى سعيد .
(٤١) رجعة أبى العلاء ، العقاد ، ص٧٤ .
(٤٢) مجلة المجلة ، فبراير ١٩٥٩ ، على أدهم .

والغباء وبلادة الحس والانغماس فى الحيوانية وضعفاء العقول هم الدائمو الابتسام والضحك» (٤٣) .

ونعتقد أن من جملة المؤثرات التى أدت إلى هذه النظرة للحياة عند المازنى قراءته رواية أرتزيباشيف «سانين» «التى تنعكس فيها الدعوة إلى المجون والخلاعة الجنسية والنفور من القيم والمثل الاجتماعية ممثلة فى البطل الرئيسى للرواية» (٤٤) ، وهذه الرواية تخلق الاستخفاف بالحياة للمعافى ، فما ظنك برجل كالمازنى وهو على استعداد لتلقى هذه النظرة والتأثر بها أبلغ التأثر ، وإن كان ينكر تلك الخلاعة الجنسية فى شخصية البطل ، يقول العقاد : «ولست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل سانين بطل القصة مع إنكاره لتلك الحيوانية اللجوج التى مثله بها مؤلف القصة ، وقد بلغ من رضاه عنها أنه ترجمها باسم «ابن الطبيعة» ، وأنه كان يردد بعض «لوازم« سانين فى كلامه بعد قراءتها بسنوات» (٤٥).

ومنها أيضًا «آلام الصدمات المتعاقبة ؛ ولاجرم أن تثقل هذه الصدمات على من يعانيها من كوارث الحرب العظمى ومن مزاولة الشدائد والمضنيات فى بيئة الأدب وبيئة التعليم وبيئة الصحافة مجتمعات ، فيخفف ثقلها بما استكن فى طبيعته من نوازع الاستخفاف» (٤٦) .

ونحن نقف ضد طبيعة الأشياء ، حين نريد من المازنى أن يكون على خلاف ما أشرج عليه ، فإن قتل الريح أهون من أن يكون المازنى محبًا للحياة فى بلاهة وغباء ، وأن نطلب منه أن يثق فى الناس ، وهو قد عانى من أقربائه - أخيه بصفة خاصة - مايزيل كل ثقة صحيحة أو زائفة ، «فقدت الثقة بالناس وانطويت لهم على سوء الظن والتحرز إذ كان أخ أكبر - غير شقيق - يستطيع وهو آمن أن يجنى على إخوته وأمهم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب» (٤٧) .

---

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) دائرة المعارف الأدبية السوفيتية ، وقام الدكتور فتوح أحمد - مشكورًا - بترجمة بعض فقرات منها.

(٤٥) بعد الأعاصير ، ص ص١٤٦ ، ١٤٧ .

(٤٦) السابق ، ص١٤٦ .

(٤٧) سبيل الحياة ، المازنى ، ص٣٤ .

كل هذه الآفات والأزمات سدكت بالمازنى ، ويأتى متعجل متسرع ليقول إنه مخلص لفلسفة واحدة ، هى الهرب من الحياة ، ثم يجد من يستمع إليه ولايوليه مايستحقه من الإزراء والإغضاء ، وما كان الرجل هاربًا من الحياة ، وإنما كان مريدًا لها خيرًا أسمى وأرفع ، متحرقًا إلى الأمثل والأكمل ، ثم إن السيدين العالم وأنيس عَمَّما الحكم على كل كتابات المازنى عند تعليقهما على نهاية بطل «إبراهيم الكاتب» ، ناسيين أو متناسيين أن منطقية الحياة وأحداث الرواية تحتمان هذه النهاية ، وأن اعتزال الحياة أحيانًا إراغة لحياة صحيحة سليمة ، فالداعيان إلى الحياة بهذه الطريقة الفجة ، داعيان فى الحقيقة والنظر غير المزغول إلى الموت ، لأن حياة كهذه التى يطلبانها لاتستحق «أل» التى للتعريف ، والتى لايساوى اللفظ دونها شيئًا ، ويستوى فيها آنئذ الإنسان والسائمة .

وبرغم تشاؤم المازنى وطيرته وتمكن ذلك من نفسه ، كما يدل على هذا قوله «وكان إبراهيم يتطير من لاشىء ومن كل شىء - وليست الطيرة فى الطباع كما يزعم ابن الرومى ، ولكنها إلا تكن فيها ليست مما يستغرب ، ولعل مكافحتها أدل على معاناتها من الإقرار ، فما يغالب المرء غير موجود أو يصارع معدومًا ، وإذا قيل إنه يطرد وهمًا فالوهم حادث والشعور به حقيقى ، وله أصل ينجم عنه وعلة تحدثه . ولم تكن طيرة إبراهيم عن ضعف فى العقل أو نقص فى الإدراك ، بل كانت بعض ما أورثته النوراستانيا وتلف الأعصاب ، وكان يعرف أن طيرته خرف، وكان لهذا يكتمها» (٤٨) .

نقول برغم تمكن هذه النزعة فى شعاب نفسه واكتظاظها بها . . فإنه كان سليم الإدراك موفور العقل ، وماكان أدبه أكبر من عقله كما هو الحال فى ابن الرومى ، وما أورثه ذلك خبلاً ذريعًا بحيث يجعله لايريم عن بيته كما كان ابن الرومى فى طيرته ، فإن المازنى كان قوى النفس مغالبًا - فى الأغلب - لهواجسه ، ومن هنا كان تمرده على الأدب الموروث الضعيف المتهافت وثورته - مثلاً - على الأغانى المصرية ومبالغاتها فى الرقة والتطرى «فالحب فى الأغانى المصرية أكثر مايدور على معانى الرخاوة ، كما كان الغزل فى شعر المتأخرين من العرب فيما نظم المقلدون

(٤٨) إبراهيم الثانى - المازنى ، ص١٧٠ ؛ راجع إلى صفحة ١٧٥ - الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٠.

والمتكلفون من المصريين ؛ ولست أعرف شيئًا هو أشد إيغالاً فى الأنوثة والتطرى من الأغانى المصرية حتى الحديث منها ، فهى دموع وسهاد وعجز عن التصرف والاحتيال وضعف عن الاحتمال وتطر هو منقصة للرجولة وتخل عن مميزاتها وخصائصها ، وهنا موضع التحرز ، فلست أقول إن الرجل لايبكى أو لايؤرقه وجده . ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن بكاء الرجل التام الرجولة لايكون إلا رائعًا ، وإلا خاليًا من معانى الضعف والأنوثة كالشجرة الضخمة حين تقصف أغصانها الأعاصير الهوجاء ، وكون الرجل قويًا ليس معناه أن الحياة ليست أقوى منه ، ولكنما معناه أنه حتى حين تغلبه الحياة ويعجز عن ضبط نفسه ، يكون ذلك أدعى إلى «قوته المقهورة» منه على الضعف على «ضعفه النسبى» (٤٩) .

فرغم هذه الأزمة ، كان المازنى يعرف كيف يواجه الحياة ويجالدها ، ولكل طبيعة سلاحها الذى يتفق ومنازعها وأميالها ، وقد ساعدت ظروف العصر على استحكام المحنة ، وبخاصة فترة الحرب العالمية الأولى ؛ إذ كانت - كما يقول العقاد - «نقطة تحول ومحنة عقل وسريرة ، وإخال أنها شملتنا جميعًا بهذه المحنة الأليمة ، فنفضها شكرى عنه بقصائده العابسة فى ديوانيه الثالث والرابع ، ونفضتها عنى بقصيدتى التى نظمتها على نمط الملاحم وسميتها بترجمة شيطان ، وراضها المازنى كما راضته فاستراح إليها غاية ما استطاع من راحة ، وعالجها يومئذ ومازال يعالجها بعد ذلك بنزعة الاستخفاف وقلة الاكتراث» (٥٠) .

ويغلب على مثل هذا الطراز من الناس أنهم يطلبون حياة جديدة غير الحياة التى يرونها ، يشيع فيها البلى سفلاً وعلوًا ، ومن هنا كانوا مجددين لأنهم بعدم رضاهم بالواقع وبالمتعارف الموروث الرث فى الآداب والفنون يحز فى نفوسهم الألم ، وتشيع لديهم النغمة الحزينة المقطبة ، ويهدمون مالايصلح للبقاء ، ثم يبنون مايرونه صالحًا للحياة الجديدة الصحيحة ، وقد كان المازنى فى طليعة المتمردين على الأدب التقليدى عندنا ، وفى طليعة المجددين من هذه الزاوية .

---

(٤٩) السياسة الأسبوعية ، ١٥ ديسمبر ١٩٢٨ ، مقال للمازنى .
(٥٠) بعد الأعاصير ، ص١٤٥ .

ومن العجب أن تتضافر حولهم الآلام من كل صوب فى حياتهم العامة والخاصة ، ويمنح واحد منهم كالمازنى للحياة بسمة مستخفة ساخرة ، ويمنح للمحزونين سلوًا وعزاءً «ولله هذا المارد إذا تجرد من الجد وعاد صبيًا مرحًا وطفلاً لعوبًا ، إنه إذًا يسرك ويفيدك ويفيض من حبوره على لوعتك إكسيرًا ، هو الترياق من كل هم» (٥١) .

لنا الله من قوم نذيب نفوسنا ... ويجنى سوانا مانشور ونقطف
ويصدر عنا الناس ريا قلوبهم ... ونحن عطاش بينهم نتلهف
نذوق شقاء العيش دون نعيمه ... علي أننا بالعيش أدرى وأعرف
ولكنه ما أخطأتنا لذاذة ... إذا بلغ السؤل القريض المثقف
إذا هو سرى عن لهيف مفجع ... وآنس قلبا موحشا يتشوف
فما نحفل الدنيا إذا جل ظلمها ... ونحن من الأيام والعيش ننصف(٥٢)

وهذا الرجل المتهم بكرهه للحياة وهروبه منها ليس أحنى منه على أهله وأصدقائه ، بل على كل الكائنات والحياة بأسرها ، ومن يقرأ ما كتبه نثرًا ونظمًا في العطف على أهله وأصدقائه والحياة كلها يدرك أنه أمام قلب دائم الحضور لايغيب ، وأمام إحساس متوهج ينفذ إلى أعماق الأشياء ، متعاطفًا معها أبلغ التعاطف ، وماتراه من مسحة قطوب بادية إنما هى قطوب الطفل الذى يطلب نصيبًا من الحلوى أكبر من نصيبه . . فالرجل طفل كبير وإن وخطه الشيب ، وماتراه من لذع فى هجائياته لايغررك ظاهره الخشن لأن فى أعماقه حسرة وأسى ، ولأنه المبدوء بالأذى فلا أقل من أن يدافع عن نفسه ، التى إن فتشتها تجد مهادًا وثيرًا من العطف الحزين لاتزيله تلك اللذاعة البادية .

والذى يقرأ مراثى الرجل لأولاده نثرًا ونظمًا ، وكيف أن رغبته البقاء لهم تستبد به يدرك أنه أمام نفس عاطفة وقلب كبير ، حرمته الأقدار بنوة البنات على إيثاره لهن وكلفه بهن «وعندى أن شعور الأب نحو ابنته حقيق أن يكون أصفى من

(٥١) السياسة الأسبوعية ، ١٣ يوليو ١٩٢٩ ، مقال لأحمد خيرى سعيد .
(٥٢) ديوان المازنى ، ص١٦٩ .

شعوره نحو ابنه ، وأقول إنه حقيق أن يكون كذلك لأنى لست على يقين منه إذ لم أجربه . . فقد أبت المقادير أن تكون لى بنت أتملى بها وأنعم (٥٣)» . ويقول فى رثاء ابنته :

قد تزملت فى الهموم فما أخلع بردا إلا للبس برود
لو رمانى الزمان فى نضرة العمر لكنت الجليد جد الجليد
ولكان المصاب كالهزم فى الصخر ، ولكن قد حطم الدهر عودى
ماعليه لو أنه كان أبقاها عزاء لوالد مفؤود(٥٤)

ويقول من قصيدة ضاعت نسختها - كما قال - ولم يبق منها غير بيتين هما :

فقدتك لم تعلق بذهنك صورة ورب صغير رزؤه كالأشايب
تقنصك المقدار منى عنوة وأقلع عنك الموت دامى المخالب(٥٥)

ويقول فى مواساة أمه :

يا أم لاتجزعى مما يحيق بنا من الخطوب ، ولاتأسى لما فاتا
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة ويقسم الله أرزاقا وأقواتا
وكل ضائقة تعرو إلى فرج وإن لليسر مثل العسر ميقاتا
ضل الذى يرتجى تأخير قسمته قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتا(٥٦)

ويعلق العقاد هذه الأبيات الأخيرة بقوله : «هذه الأبيات قد أودعت نفس المازنى كلها . . . نفس المازنى الشاعر الذى لاتجديه براءته من الشعر . . نفس المازنى العطوف الذى يؤلمه الحزن فى نفس أمه ولايشغله عنه حزنه وألمه وهما أشد وأقسى . . . نفس المازنى القدرى الذى أسلم دنياه لقضاء الله . . . نفس المازنى الذى طرقت أبواب خلده حكمة الاستخفاف وقلة المبالاة ، وما نفع المبالاة ؟ إن

(٥٣) السياسة الأسبوعية ، ٢٠ ديسمبر ١٩٣٠ ، مقال المازنى .
(٥٤) ديوانه ، ص٣٧ .
(٥٥) السابق ، ص١٣٥ .
(٥٦) السابق ، ص٢١٣ .

إسماعيل المفتدى قد مات كما مات الكبش الذى فداه (٥٧)» .

وربما قيل من قبيل التعسف الكاذب إن حب الرجل أهله لايثاب عليه ومن ثم لايحسب له حساب ، وقد يكون لهذا الكلام وجاهة ظاهرة إن لم تحسب حساب نوع الحب واللهفة والأسى ، التى تخامر نفسًا حساسة كنفس المازنى الشاعر العطوف ، وكيف يستقيم هذا المنطق ، والرجل قد شمل الكائنات كلها بكل قلبه وعطفه «فالدار المهجورة» التى :

قد كساها البحر ثوبًا مظلمًا ... ما أضل الطرف فى هذا الإهاب

والتى يدعونا إلى :

أوصدوا الأبواب بالله ولا
تدعوا العين ترى فعل البلى
وامنعوا دار الهوى أن تبذلا
إن للدار علينا ذمما ... وقبيح خونها بعد الخراب(٥٨)

والوردة الذابلة التى حنا أضلاعه على ذاوى سناها ، والنسر المهيض ، والإسكندرية ، ومراثيه لأصدقائه ، ومراسلاته الشعرية إلى العقاد وشكرى ، واستقباله للأخير ، وهو عائد من الخارج بقصيدة من جياد قصائده يهتف قائلاً :

أما فتى صادق الهوى كأخى ... شكرى يرد الزمان عن لوبه
أوثق من تصطفى ؛ وأكرم من ... تأخذ من عقله ومن أدبه
خلائق سهلة موطأة ... كالبارد العذب غب منسكبه
كم مجلس والوداد ثالثنا ... والراح تجلى كالحق من حجبه
ذاك قريبى وليس من رحمى ... وهو نسيبى ولست من نسبه
إن ضرب الدهر بيننا فلقد ... لف كما كان قبل شملى به(٥٩)

---

(٥٧) بعد الأعاصير ، ص١٥٤ .
(٥٨) ديوان ص ص٢٩ ، ٣٠ .
(٥٩) ديوانه ، ص٨٤ .

ولو ذهبنا نستقصى لأعيانا البحث ، لأن نظرة واحدة على الديوان أو على فهرس قصائده توضح إلى أى حد كان الرجل غير منزور العطف ، بل كان مشبوبه ومستوفزه ، ولكن العلة واتته وقد صادفت استعدادًا فخرج أدبه صورة لهذه النفس القلقة المتشائمة الحساسة التى توشك - كما يقول العقاد من فرط حسها وشعورها وتخيلها - أن تخاف مما يسر خوفها مما يسوء كما قال من أبيات :

ويروعنى يأسى ويفزعنى ... أملي ، وأفرق من لقاء غد
ولرب جوهرة ظفرت بها ... فنفضت منها كف مرتعد
ورجعت أنظر هل بها أثر ... منها يظل يهيض من جلدى[٦٠]

وقد بلغ من وقر هذا الإحساس بتوالى النكبات والاستعداد الطبيعى والمكتسب بالقراءة ؛ وبخاصة فى الكتاب المقدس ، ورواية سانين أن ألح خيال الموت على صاحبنا ، فأنشد لأحلام الموتى :

إذا ما الليل نام رأيت قلبى ... كلوءًا مطعمًا مر الفطام
وما طاف الكرى بالعين إلا ... ليفتحها على الكرب العظام
وفى ظلم القبور لنا مجير ... يجلى وحشة العيش الجهام[٦١]

وصرخ فى طراءة السن وغضارة الشباب :

لبست رداء الدهر عشرين حجة ... وثنتين ياشوقى إلى خلع ذا البرد
عزوفا عن الدنيا ، ومن لم يجد بها ... مرادا لآمال تعلل بالزهد

* * *

أبيت كأن القلب كهف مهدم ... برأس منيف فيه للريح ملعب
أو انى فى بحر الحوادث صخرة ... تناطحها الأمواج وهى تقلب[٦٢]

---

(٦٠) بعد الأعاصير ، ص١٤٣ .
(٦١) ديوانه ، ص٣٩ .
(٦٢) السابق ، ص٤٢ ، ٤٣ .

وبلغ به الحزن والأسى أن قال :

أرى فى أديم الطود عـاث برأسه الخراب ووراه الضـباب مثـاليا(٦٣)

وقويت بالمازنى على مـر الزمن نحيزة الاسـتخفاف ، ولم تسلم نفـسه من هذا الاستخـفاف بل ربما حظيت بالنصيب الأوفر ، وقـد جار على نفسه كـما لم يجر أحد عليـه ، وعناوين كتبه فـحسب تغنى عن استقـصاء هذه الظاهرة ، ومن تلك العناوين «عالماشى، قبض الريح ، خـيوط العنكبوت» «وكأنه يتمثل بقـول الجامعة ابن داود «باطل الأباطيل» ، الكل باطل» (٦٤) وقـد جـار - فيـمـا جـار - على شاعريته - وهى أخصب ملكاته فى رأينا - فأنكرها على نفسه وانتهى إلى «إحدى اثنتين : إما أن يقول المرء شعرًا من أعلى طبقة وإما أن يريح نفسه ويريح الناس ، فلاخـير فى غـير الكلام الخـالد على الدهر ، وأنا أعرف بنفـسى من أن يداخلنى الغرور فى شأنـها ، ولقد نظرت فيمـا قرضت من الشعر فـهززت رأسى وقلت : «هذا كلام فـارغ وأولى بى أن أعرف قدر نفـسى فلأقلع» ورميت ديوانى حـتى ما أعرف أين هو الآن إذا كـان لايزال باقيًا . . والشـعر على كونه إلهـامًا فن يسلس بالمرانة ، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطرًا واحدًا ، وحسنًا فعلت فما ينقص الدنيـا الكلام الوسط . . فإنه فيها بحـمد الله كثير ، ثم حـمد الغرور الذى فطر عليه الإنسان (٦٥) » ؛وقد ترددت هذه النغمة فى كثير من كتبه ، والمازنى له الحق فى أن يرى لنفسـه مايشاء بقدر مـا للدارسين الحق فى رؤيتهم مـايشاءون أيضًا .

فالمازنى - فيـما نعتقد - يستـصغر كل جهد إنسـانى بجانب الأقدار والخلود ، ويرى أنه لم يقل كل ما أراده ويريده مرتئيًـا أنه لاحاجة به إلى منِّ الناس عليه ممن يحسبون أنهم يحسنون إليه بالتوقير والتقدير والعرفان ، وماذا فى وسع الإنسان أن يصنع بجانب الآباد ، وكل صـنيعه إلى أمل وذكرى وكـلاهما خيـال ، وهو بهذه الوسيلة من الاستخفاف بمواهبه وملكاته قد :

---

(٦٣) ديوانه ، ص١٦٣ .

(٦٤) الكتاب المقدس ، ص٩٧٢ .

(٦٥) السياسة الأسبوعية ، ٢٥ أكتوبر ، ١٩٣٠ ، مقال المازنى .

أراح الحاسدين ، فإن تحدوا له فضلاً أعان على التحدى
إذا اقتتلوا على الجدوى رماهم يقول أبى علاء غير مجد [٦٦]

ونكرانه الشاعرية على نفسه قد أساء إليه عند أكثر الباحثين فهم يرونه كاتبًا وقصاصًا ويستغربون أن يكون شاعرًا ، ومن العجب أن المازنى يعلم طبيعة الناس ، وأنها فطرت على الكنود والنكران يقول : «واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضًا ويزحزحونك إلى ماهو وراءها ؛ لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لايدعان للعدل والإنصاف مجالاً للعمل [٦٧] .

ولم يفقد المازنى - رغم استخفافه وقلة مبالاته - شعور الاحترام والتوقير من مخالطيه فاستحق لقب «تيمورلنك» من تلاميذه الشياطين حين خدعهم مظهره ، ولكنهم عرفوا بعد امتحان له أو امتحانين أى رجل هذا الضئيل الهزيل «وفهموا أنه رجل يملك زمام نفسه فلايستعصى عليه أن يملك زمام الآخرين [٦٨]» .

فصورة الدعابة التى يبدو بها المازنى تعرف مواطن الاحترام والتقديس ، ولم تكن نابعة من قماءة نفسية وكدها النكاية ، بل كانت نابعة من شعور بالمثل الأعلى وعدم مصالحة مع الواقع المسف ، وقد أغرت هذه الدعابة صديقه شكرى ، حين كان يسمع تعليقاته على مايقرأ الثلاثة شعرًا ونثرًا فيقول شكرى فيما نقله العقاد عنه : «إن فيك يا أبا خليل لشيئًا ملكيًا عفريتيًا بلا افتراق وكان هو طيب الله ثراه لايرفض هذا الوصف ، ولكنه يجيب عليه تارة إجابة الملائكة وتارة إجابة العفاريت» [٦٩] .

ومن تمام رسم الصورة المازنية أن نتحدث عن أصدقائه ، ويطفر إلى الذهن اسم صديقيه شكرى والعقاد وقد التأم شملهم فى مطالع هذا القرن ، وكونوا اتجاهًا جديدًا فى تاريخنا الأدبى والنقدى ، وسوف نقف من هذه العلاقة على ماله

(٦٦) خمسة دواوين ، للعقاد ص٢٦٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
(٦٧) مقدمة العقاد لسبيل الحياة للمازنى ، ص١٠ .
(٦٨) حياة قلم - العقاد ، ص١٨٣ ، كتاب الهلال ١٩٦٤ .
(٦٩) المرجع السابق ، ص١٨٢ .

مساس بالشاعرية ، ولن نتحدث عن جوانب أخرى للعلاقة إلا فيما يخدم مانقصده .

وقد تعرف المازنى وشكرى فى مدرسة المعلمين العليا ، حينما كانا طالبين بها ، ولندع المازنى بقلمه يصف هذه العلاقة «وكنا يومئذ - أى عام ١٩٠٧ طالبين فى مدرسة المعلمين العليا ، وكانت صلتى به وثيقة ، وكان كل منا يخلط صاحبه بنفسه ، ولكنى لم أكن يومئذ إلا مبتدئًا على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين فى الأدب ورأى حاسم فيما ينبغى أن يكون عليه ، ومن اللؤم الذى أتجافى بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدى وسدد خطاى ، ودلنى على المحجة الواضحة ، وإنى لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخبط أعوامًا أخرى ، ولكان من المحتمل جدًا أن أضل طريق الهدى ، أو أن يميل بى الجهل أو الضلال، أو غير ذلك إلى ماتمردت عليه من زمان بعيد . وقد كان من حظى أن وصلت المقادير أسبابى بشكرى فأعدانى وأفادنى صحة فى النظر واستقامة فى التفكير، وفتح عينى على ذخائر وكنوز كنت حقيقًا أن أخطئها وأن تفوتنى وأنا أتخبط وحدى(٧٠)» .

وينبغى أن يوضع هذا النص فى إطاره التاريخى ؛ لأنه من قبيل مسح الجراح التى أحدثها المازنى فى نفس صديقه قبل ذلك فى الديوان ، ومثل هذه الحالة قمينة بالتواضع الشديد الذى يصل أحيانًا إلى بخع النفس والمازنى بطبيعته رجل متسامح ودود ، ولأنه من غير المعقول أن يكون المازنى غير قارىء حتى يجىء شكرى ليدله على القراءة ، وعلى الرغم من هذه الملاحظة يبقى فضل شكرى فضل توجيه لمن يملك فكرًا نشيطًا يستطيع أن يسير وحده .

وقد قام المازنى بدور التعريف بين شكرى والعقاد ؛ وطالما كانوا يجتمعون للقراءة والمناقشة ، ولكل منهم أمياله الخاصة فى القراءة والنظر ، يقول العقاد عن شكرى : «لم أعرف قبله ولابعده أحدًا من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعًا على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية ومايترجم إليها من اللغات الأخرى ،

---

(٧٠) السياسة الأسبوعية ، ١٥ أبريل ١٩٣٠ ، مقال للمازنى .

ولا أذكر أننى حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده علمًا به وإحاطة بخير ما فيه، وكان يحدثنا عن كتب لم نقرأها ولم نلتفت إليها ، ولاسيما كتب القصة والتاريخ(٧١) .

واستمرت علاقاتهم صافية ، يقرأون معا ويتناقشون فيما يقرأون ويكتبون ، ويتراسلون بالشعر ، فقد أرسل العقاد إلى كل منهما قصيدته «أحلام الموتى» والتى يقول فيها :

ستغرب شمس هذا العمر يومًا ... ويغمض ناظرى ليل الحمام
فهل يسرى إلى قبرى خيال ... من الدنيا بأنباء الأنام
ويمسى طيف من أهوى سميرى ... ويؤنس وحشتي ترجيع هام (٧٢)

ويجيبه المازنى بقوله :

إذا ما الموت رنق فى جفونى ... وبات بكفه يومًا زمامى
فما يغنى خيال من حبيب ... يزورك بالتحية والسلام
وكيف يصد عنك وأنت حى ... ويمسى واصلا لك فى الرجام (٧٣)

ويجيبه شكرى أيضًا بقوله :

وكان العدل أن ترضى بموت ... فلا طيف يساعد باللمام
أليس الكون أكبر منك شأنا ... وأولى بالمقادر والنظام (٧٤)

وينظم شكرى قصيدته «الحبيبان» يشبه أحدهما بالجنة والآخر بالجحيم ، فيرد عليه العقاد بقصيدته «الحبيب الثالث» جامعًا بين الجنة والجحيم ، يقول منها العقاد:

---

(٧١) حياة قلم ، ص١٩١ .
(٧٢) ديوان العقاد ، ص١٠ ، مطبعة وحدة الصيانة بأسوان ، سنة ١٩٦٧ .
(٧٣) ديوان المازنى ، ص٣٨ .
(٧٤) ديوان شكرى ، ص١٥٣ ، جمع وتحقيق نقولا يوسف ، الإسكندرية ، سنة ١٩٦٠ .

قـلاك من دُفَّـاع نار الجـحـيم ووصلـك الجنـة دار النعـــيم
وريـقـك الـكـوثـر لـكـنـه كالمهل فى صدر المحب الكظيم (٧٥)

ويقرأ العـقاد والمازنى قصـيدة ابن الرومى النونيـة التى يمدح بها أبا الصـقر ، فيعارضانها فى مطولتين من أجود ما كتب الشاعران ، يقول المازنى منها :

غـذائى الحب يا من فيـه حرمـان منى له أبـدا مـاعـشت نـشـدان
وهل غـــذائى إلا أن أراك وأن يمر بالسـمع لفـظ منك فـتـان
ومـا أقـل الذى أبغى وأيـسـره لو كنت تنصف إن الحق عـريان
ذنبـى إليـك هوى ينـفك يـعلـنه شعـرى، وإحسانكم صد وحـرمان
ياليت أن ذنـوب الناس قـاطـبـة شعر عـفيف ، وأشواق وتحنان (٧٦)

وينظم العقاد على الوزن والروى ، فيقول :

ما ضـر من نال فى حين سـعادته إن فـاته فى طويل الدهر أحيـان
إذا جنـيت من الأيـام زهرتهـــا فاقـنع فسائـرها شوك وعـيدان
ولا وربك مـا بالنفس مـقـتنع أكـان نجح لهـا أم كان حـرمـان
فـإن روينا فـبـعض الرى مظمـأة وإن ظمئنا فمـا يرتاح ظمآن (٧٧)

ويكتب المازنى عن شكرى مـقـارنًا بينه وبين حافـظ ، مظهرًا من هذه المقـارنة فضل المذهب الجديد ، يقـول : «وبعد : فإن حافظًا إذا قيس إلى شكرى كـالبركة الآجنة إلى جانب البـحر العمـيق الزاخر ، وحسب القـارىء أن يتأمل ديوانيهـما ليعلم مابينهمـا من البعد ، وليعرف كيف يقعد الخيـال بحافظ ويسمو بشكرى فى سماء الفكر» (٧٨) .

---

(٧٥) ديوان العقاد ، ص١١١ .
(٧٦) ديوان المازنى ، ص٩٧ .
(٧٧) ديوان العقاد ، ص٤٥ .
(٧٨) شعر حافظ – المازنى ، ص١٠ ، ط أولى – مطبعة اليوسفور ، ١٩١٥ .

ويصدر شكرى الجـزء الثالث من ديوانه بكلمة إهداء طيبـة إلى المازنى ، منشداً فيه قول أبى تمام :

وقلت أخ ، قـالوا أخ من قـرابة فـقلت لهم إن الشكول أقـارب

نسيبى فى عـزمى ورأيى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسب (٧٩)

ويقدم المازنى ديوان العقاد قائلاً : «وأحسبنى أريد أن أقول إنى اطلعت من شعر العقاد على نواح كـانت محجوبة عن عينى ، وإنى وجـدت فيه التعبيـر عما كنت أحسه ولا أكـاد أدرك كنهه ، أو ما أدرك ولا أقوى على العـبارة عنه ، وإنى زدت للحيـاة فهمًـا وبها شعـورًا وعلما ، وماذا تبـغى من الشعـر بعد ذلك وهو شىء لايؤكل ولايشرب ولايلبس ولايصلح أن يكون زينة أو ينفع فى معاش» (٨٠) .

ويقدم العقـاد ديوان المازنى والجزء الثانى من ديوان شكرى ، فيقـول فى المقدمة الأولى : «وللمازنى أسلوب خـاص لايدلك على أنه أسلوب السليقة والطبع أكـثر من هذا التآلف الذى تجده بين قلمـه ونفسه ، فإن قلمه يتحرى الـفخامة فى اللفظ والروعة فى حوك الـشعر ، كما تتـحرى نفسه على لطافـتها الفخامـة فى المشاهد والروعة فى مـظاهر الكون والطبيـعة (٨١)» ويقول فى المـقدمة الثـانية : «إن شـعر شكرى لاينحدر انحدار السيل فى شدة وصخـب وانصباب ، ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق وسعة وسكون» (٨٢) .

واستمرت هذه العلاقة الطيبة المثمرة حـتى حدثت جفوة ، حيال أسبابها يذهب المؤرخون مذاهب شتى ، ولايعنينا هنا استقصاء أسـبابها بقدر ماتهمنا شهادة رجل منصف من أشد أوليـاء شكرى وأصفيائـه وتلاميذه المخلصين ، هو الأسـتاذ على أدهم الذى سمـعت العقاد فى حـضرته ينعته بمثـل هذه الصفات ، يقول الأسـتاذ أدهم عن هذه المعركـة : «وقد كانت معـركة : «شكرى هو البادىء بإثارة غـبارها وإيقاد نيرانها ، وقـد حورب فيها بذلك السلاح الذى شـهره ، ولم يكن من حقه

(٧٩) ديوان شكرى ، ص٢٠٨ .
(٨٠) مقدمة ديوان العقاد ، ص١٥ .
(٨١) ديوان المازنى ، ص٢٣ .
(٨٢) ديوان شكرى ، ص١٠٤ .

أن يشعر فيها بظلم وقع عليه ، وهو البادىء بالهجوم» (٨٢) .

ومن الطبيعى أن يـرد المازنى ويعنف فى الرد وفاقًا مع طبيـعته وطبيعـة المعركة وظروف العـصر ، الذى لاينكر مـثل هذه الأسـاليب فى المعارك ، ولاينبـغى أن ينكرها أى عصر يستقيم فيه نظر الناس ؛ وثارت ثائرة شكرى فشرع فى نقد المازنى والعقـاد معًا ، يقول الأسـتاذ أدهم : «ولم يكتف الأستـاذ شكرى بنقد المازنى بل شرع كذلك فى نقد شـعر العقاد نقدًا عنيفًا ، وكان شـكرى يكتب هذا النقد بغير إمضائه ، ولكن الأدباء الذين عاصـروا هذه الفترة كانوا يعرفون حقـيقة كاتب هذه الفصول،وكنت أعلم علمًا ليس بالظن علاقة الأستاذ شكرى بصاحب عكاظ . . . ولم يكن ماكـتبه شكـرى فى نقد المازنى والعقـاد من المستوى اللائـق بأدبه العالى وثقافته الممتازة ، وواضح أن المازنى فى كتاب الديوان أراد أن يثأر لنفسه ، بعد أن احتمل أشهـرًا استرسال شكرى فى نقده على صـفحات عكاظ ، ولذلك لم يكن من المنتظر أن يكون نقـد المازنى لشكرى نقدًا مـوضوعـيًا قـوامه البحـث الهادىء والتحليل الدقيق ، وتحرى الإنصاف ونشدان الحقيقة» (٨٤) .

وشهادة الأسـتاذ أدهم شهادة لهـا وزنها فى هذه القضية ؛ لأنـه كما سلف من مريدى شكرى ، ومـاكان من المنتظر أن يدين أسـتاذه هذه الإدانة لولا الموضوعـية وتحرى الإنصـاف ، ولأنه أيضًا معـاصر لهذه الفـترة الدقـيقة فى التـاريخ النقدى والأدبى ، ولأنه أخيـرًا أديب وناقد ممتاز يعـرف للحقيقـة قدرها وللأمانة العلمـية قيمتها .

وقد اسـتغل صـرعى المذهب العتـيق هذا الشقـاق فحـاولوا توسيع الهـوة بين الأصدقـاء و«كان للاتجاه المحافظ أصـابع قوية فى تعمـيق هوة الخلاف بين شكرى والمازنى مستغلين موقف شكرى من سرقات المازنى الأدبية ، وكان العقاد قد تمكن فى ١٩١٧ من لم الشـمل وجمع الكلمـة ، ولكن دور المحافظين بالحـيل الظاهرة والباطنة قد بعث الخلاف من جديد وطوره (٨٥)» .

---

(٨٣) مجلة المجلة ، فبراير ، سنة ١٩٥٩ .

(٨٤) المرجع السابق .

(٨٥) المعارك الأدبية : رسالة دكتوراه بمكتبة دار العلوم للدكتور محمد أبو الأنوار ، ص١٤٣ .

وأنتجت هذه المعارك مقالات نقدية بالغة العنف وشعراً بالغ اللذع ؛ ففى الديوان الذى أصدره العقاد والمازنى مقالتان أو قصيدتان هجائيتان [٨٦] ،وليس من قبيل الاعتذار أو الدفاع عن أسلوب المازنى فيهما وفى غيرهما أن نقول إن طبيعة العصر والإحساس بالذات وحرية الكتابة كانت تسمح بمثل هذا الأسلوب وبأعنف منه ، فإن المازنى مبدوء بالمعركة فليحتمل مناجزوه ما جروه على أنفسهم من شواظ المعركة وغبارها .

أما الشعر الذى أنتجته هذه المعركة فسيكون اختيارنا له من قبيل الترجيح لا القطع ؛ لأنه للأسف يرد دون ذكر مناسبات ، وسنعتمد على الفهم الداخلى للنص مع عون التاريخ ماكان عونه .

للمازنى قصيدة بعنوان «إلى صديق قديم» قدم لها بهذا التقديم النثرى «كان لنا صديق أخلصنا له الولاء وصدقناه الإخاء فما زال يوهن من حبلنا ويفصم من عرى ودنا حتى انفرجت الحال ، ووقعت النبوة وجرى بيننا كلام ، فبعثنا له بهذه القصيدة :

بعض بغضائكم أولى البغضاء ... إنما الشتم شيمة السفهاء

ليس يشفى السباب غل حقود ... قد طوى صدره على الشحناء

إلى أن يقول :

هو حمى الجليس يدفع فى ... الصدر ثقيل الكلام والإيماء

أعجمى اللسان فَهٌّ عَيِّىٌّ ... يدعى أنه من الفصحاء

يملأ السمع والقلوب كما يزعم ... رطب اللسان عذب الأداء

ياقطيع اللسان مالك والشعر ... وصوغ الكلام جم العناء[٨٧]

ويعلق الدكتور مندور على هذه القصيدة بأنها قيلت فى هجاء شكرى [٨٨] ،ولنا

---

(٨٦) راجع فلسفة الفن والاتجاهات النقدية عند المازنى : رسالة ماجستير بمكتبة دار العلوم : إسماعيل السيفى ١٠٤ .

(٨٧) ديوان المازنى ، ص ص٥٩ ، ٦٢ .

(٨٨) إبراهيم المازنى – د. مندور ، ص٦٣ .

تعليق على تعليق مندور ، فالقصيدة فى الجزء الأول من ديوان المازنى الصادر عام ١٩١٢ كما يقول الدكتور نفسه ، وللمازنى قصيدة بعنوان «استقبال صديق» فى الجزء نفسه ، وقد قيلت فى استقبال شكرى عندما «عاد من إنجلترا» فى خريف عام ١٩١٢ وكان فى السادسة والعشرين ، واستقبله صديقه المازنى لدى وصوله بقصيدة [٨٩] » ، ثم إن المازنى كتب جملة مقالات عام ١٩١٣ جمعها بعد ذلك عام ١٩١٥ فى كتابه «شعر حافظ» ، نوه فيها بشاعرية شكرى أبلغ تنويه . كل هذه الملاحظات تجعلنا نقف موقف الشك - إن لم يكن الرفض - من حكم الدكتور مندور ، لأنه من المحتمل أن الجفوة قد وقعت عام ١٩١٦ وفاقًا مع التاريخ ، وقد تمكن العقاد فى عام ١٩١٧ من لم الشمل وجمع الكلمة بين الصديقين ؛ ويبدو أن لم الشمل حدث بعد أكثر من ثلاثة أشهر من العام نفسه ؛ لأن غبار المعركة كان حديث «المقتطف» تلك الشهور [٩٠] ، ولأن ديوان المازنى (الجزء الثانى) صدر عام ١٩١٧ ، وفيه حديث المازنى عن سرقاته والرد على شكرى ، وقد احتفت «المقتطف» بهذا الجزء من ديوان المازنى ، وكأنها تدافع عن صاحبه أمام هذه الهجمات [٩١] ، ولأن الجزء الثالث من ديوان شكرى الصادر عام ١٩١٥ مصدر بإهداء كريم للمازنى .

كل هذا يقف حائلاً دون حكم الدكتور مندور . . فإن هذه القصيدة على فرض كتابتها عام ١٩١٣ ، وهو تاريخ صدور هذا الجزء بعد استقبال المازنى لصديقه عام ١٩١٢ ، سابقة على الجفوة التى وقعت بين الصديقين .

وتماشيًا مع الأحداث التاريخية ، يمكن الحكم باطمئنان بأن الدكتور مندور اعتمد على الذاكرة وقد خانته ، أو على التخمين الذى يظن أن القصيدة فى هجاء شكرى لأنها فى هجاء أديب شاعر .

وفى اعتقادنا أن المعركة بدأت عام ١٩١٦ ، والدليل على ذلك أن الجزء الخامس من ديوان شكرى الصادر عام ١٩١٦ قد ختم مقدمته بالإبانة عن سرقات

---

(٨٩) ديوان شكرى مقدمة نقولا يوسف ، ص٥ .
(٩٠) راجع مجلة المقتطف ، يناير ومارس ، مقالان لشكرى وأحمد زكى أبو شادى ١٩١٧ .
(٩١) راجع مقتطف يونيه ١٩١٧ .

المازنى ، وفيه قصائد كثيرة يحتمل أن تكون فى هجاء المازنى ، ولو كانت المعركة حدثت قبل ذلك . . لكان لها نصيب فى شعر شكرى ونقده وبخاصة فى الجزء الرابع من ديوانه الصادر عام ١٩١٦ أيضًا ، فالمعركة إذًا حدثت بالتحديد بعد بداية ١٩١٦ ، ويكفى أن نطالع عناوين قصائد الهجاء لدى شكرى ؛ لأنها تشير إلى أنها قيلت فى المازنى ، فقصيدة «لص أم أديب» يقول فى مطلعها :

أتسرق من شعرى وتقدح فى شعرى ... كذاك لصوص الشعر فى مسلك وعر(٩٢)

وفى أخرى بعنوان «صرصور الشعر» يقول منها :

يا أيها الشانىء المغرور يشتمنى ... ارفق بنفسك ليس الشتم يؤذينى

لذ بالجبال وضعها فوق فضلى ، واشتمنى كما شئت ، شتم الوغد يعلينى(٩٣)

وفى ثالثة بعنوان «النقد القذر» يقول :

نقدك هذا وضر الزيت ... لوث به ماشئت من بيت

يغسله الدهر بأمواجه ... إذ أنت فيه طعمة الموت

شعرى مثل الدهر فى صوته ... وأنت غر خافت الصوت

إن تعب الناقد فى نقده ... بادره باللو وباليت (٩٤)

وإلحاح شكرى على اتهام المهجو بالسرقة يرجح أن تكون هذه القصائد فى هجاء المازنى ؛ ونقول «يرجح» لأنه ليس لدينا دليل جازم على صحة هذه المقولة .

وإذا ذهبنا نستقصى أثر هذه المعركة عند المازنى فى الجزئين الثانى والثالث من ديوانه - بصرف النظر عما جاء فى كتاب «الديوان - نرى أنه أشار إليها فى مقدمة الجزء الثانى ، ويفهم أنه اضطر إلى هذه الإشارة لأن قراءه ينتظرون منه كلمة عما اتهم بانتحاله ، ولولا هذا الانتظار ماكتب ولا أشار ، وقد اعتذر فيها بما عن له من اعتذارات خاتمًا المقدمة بهذه الكلمة الحزينة المحزنة «هذا . . ولايسعنا إلا أن

---

(٩٢) ديوان شكرى ، ص٣٩٢ .
(٩٣) السابق ، ص٤٢٤ .
(٩٤) المرجع السابق ، ص٤٢٥ .

نشكر لصديقنا شكرى أن نبهنا إلى مآخذ شعرنا والسلام» (٩٥) .

وبمراجعة هذا الجزء لم نجد إلا مقطوعة بعنوان «إلى رجل يشتمنا» ، قال فيها :

رفقًا بنفسك إننى رجل ... لا بغض فى قلبى لمن جهلوا
حسن الكراهة فى تبادلها ... لا أن ينوء بثقلها رجل
فاقل الذين إذا ثلبتهم ... أضنى نفوسهم بك الشغل
إنى لآنف أن أسف إلى ... أمر سيعقبنى له خجل (٩٦)

وليس لدينا دليل سوى الاحتمال فى أن مثل هذا الشعر قيل فى شكرى . وليس فى هذه المقطوعة من معانى الهجاء سوى العتب الحانى ، مما يدل - إن صدق الاحتمال - على أن المازنى مبق على صديقه رغم جهله له ، أو أنه يرخى حبال الود لصديقه ، عله لايندد به ويعود إلى ساحة الرضا والصفاء ، ولكنها مجرد احتمالات .

وفى هذا الجزء نفسه قصيدة ملغزة لأنها رسالة إلى شكرى ، وفيها من الودادة واللهفة مالا يصدر إلا عن صفاء ووئام ؛ وهى بعنوان «عبث الحياة وباطلها» ، يقول منها :

تبغي حياة لا تحس صروفها ... وتذم طول تصوب وتصعد
لهفى عليك وقد تخالجك الأسى ... وعلى من خلق الهموم الأوغد
إنّا كلينا واجد متجلد ... يخطو إلى الغايات خطو مقيد
وكأنما كتب الزمان حياتنا ... بدم كحاشية الظلام الأربد (٩٧)

ويحتمل أن تكون هذه القصيدة كتبت قبل وقوع النبوة ، وعز على المازنى أن يحذفها حين طبع ديوانه ، أو يحتمل أن المازنى راجع طبعه بعد أن هدأت لواعج الغضب مرتئيًا أن كل مافى الدنيا عبث وباطل وقبض الريح بله هذه الخلافات بينه

(٩٥) ديوان المازنى ، ص١٢ .
(٩٦) السابق ، ص١٩٧ .
(٩٧) السابق ، ص١٧٥ .

وبين صديقه القديم ، فكتب القصيدة فى حالة من حالات مراجعة النفس ، وهذا دليل على بطانة نفسه الحريرية .

ويبدو - كما قلنا - أن رأب الصدع عاد إلى الانصداع مرة أخرى بعد تمكن العقاد من لم الشعث ؛ لأننا نرى قصيدة فى الجزء الثالث من ديوان المازنى بعد عام ١٩١٧ ، وهو الجزء الذى لم يطبع فى حياة الشاعر ، وصححه وضبطه الأستاذ محمود عماد ، هذه القصيدة بعنوان «الحمار المستأسد» وقد عاودت المازنى حدته وعرامته ؛ لأن فى القصيدة نبوًا خادشًا اضطر الأستاذ عماد إلى حذفه ، وإن خالف بذلك أمانة النقل - كما قال - بين يدى هذه القصيدة - يقول المازنى فى مطلعها :

النجاء النجاء يا ابن ... من سيوف الهجاء ذات المضاء

لا لعمرى ، وأين تهرب منى ومناياى طى هذا الهواء (٩٨)

ونقول مرة أخرى إنه ليس لدينا دليل ملموس جازم على صحة ماذهبنا إليه ؛ لأن القصائد فى أغلبها لاتذكر لها مناسبة إلا من قبيل الإشارات أحيانًا من أصحابها أو من غيرهم .

وعلا غبار المعركة بعد ذلك حتى بلغ أوجه فى كتاب الديوان عام ١٩٢١ ولعبت أصابع المقلدين دورًا خطيرًا فى تعميق هوة الخلاف ، الذى لم يستطع العقاد عام ١٩١٧ إزالته كما ينبغى .

ولكن المازنى عاوده طبعه السمح الودود فاعتذر لشكرى ، وكتب مقالة فى «البلاغ» فى أول سبتمبر عام ١٩٣٤ ، يعتذر فيها عما بدر منه ويعلن فضل شكرى وتوجيهه له . . . ونظم شكرى قصيدة بعنوان «بعد الإخاء والعداء» وقد ذكر العقاد أن هذه القصيدة قيلت فى الأستاذ المازنى وزاد ، فقال إنها من أروع قصائد الأدب العربى (٩٩) .

---

(٩٨) ديوان المازنى ص٢٤٣ ، وقد سبق الاستشهاد بمقطوعة كبيرة منها ، ومكان النقاط فى شطر البيت الأول كلمة «الزناء» فيما نعتقد .

(٩٩) ديوان شكرى ، مقدمة الأستاذ نقولا يوسف ، ص ص٩ ، ١٠ .

يقول شكرى من تلك القصيدة :

حنوت على الود الذى كان بيننا ... وإن صد عنه ماجنينا على الود

حنوت ولو أنى حنوت وماحنا ... ولو أنه يبغى هلاكى من الحقد

ولا أكذبن الناس قلبى كقلبه ... له آنة ميل عن النصف والقصد

كلانا جنى شرا ، فعاد إخاؤنا ... محالا حكى ذكرى الشباب على بعد

فيا طيب ذكراه ، ويا بعد عهده ... وأين قديم الود من حاضر الصد

إلى أن يقول :

رحيق الحياة الود لو دام صفوه ... وكالخمر - أصفاه المعتق ذو العهد

وأحسنه ماكان من عصرة الصبا ... ولم يحل بعد الشيب مستحدث الود

فمن لى بعود الدهر للود والصبا ... أليفين ماكانا ، كما الند للند

يخال الصبا ودا ، وود الصبا صبا ... كيانهما الممزوج كالجوهر الفرد(١٠٠)

وينتقل المازنى إلى العالم الآخر ، فيبكيه العقاد أبلغ البكاء وأوجعه نثرًا وشعرًا يقول . لقد قيل إن الصديق نفس ثانية فى جسم آخر وماهى بكلمة صادقة إن لم تصدق على صداقة سبع وثلاثين سنة أو تزيد ، تعاقبت فيهما الحوادث بفتنها وأهوالها ففرقت بين الوالد وولده وبين الأخ وأخيه وبين الزميل وزميله ؛ ووقفت دون تلك الآصرة السماوية لاتبلغ إليها بضربة من ضرباتها ، ولاتسعى إليها بنفثة من نفثاتها ، ولاتمسها إلا لتزيدها قوة على قوة ومناعة على مناعة ، ثم تتركها نفسًا واحدة تفترق بالرأى فتلتقى بالشعور وتفترق فى الشعور ، فتلتقى فى صلة من صلات الروح ، تجمع البديهة على البديهة والخيال على الخيال والمعنى على المعنى شاخصة ماثلة مذكورة ، حينما تقلبت صفحة من كتاب أو ترددت عبارة من مقال(١٠١) .

---

(١٠٠) السابق ، ص ص٥٨٩ ، ٥٩١ . ويذكر مقدم الديوان أن هذه القصيدة نشرت بمجلة الرسالة ، عدد ١٢٠ ، فى ٢١ أكتوبر عام ١٩٢٥ .

(١٠١) بعد الأعاصير ، ص١٣٤ .

ويبكيه شعرًا فى نشيج حزين ، ويكون بلاغ قوله نفثته الأخيرة :

نمينا شعرنا صنوين حينا ... فكيف رثاؤه بالشعر وحدى

وجاوزنا السهول معًا ؛ فماذا ... ستجدى فى الوعود جهود فرد

إذا ثقل الشباب ولى زميل ... فيا بؤس المشيب المستبد

حياة إن تطل ، فالويل ويلى ... وإن تقصر فقد أبلغت قصدى

سلامًا أيها الدنيا سلامًا ... لأنت أحب لى لو عاش بعدى[١٠٢]

هذه صداقات المازنى فى عالم الفكر والأدب ، نحس فيها بنفس ما صفرت من الود للحياة والأحياء فى لحظة من اللحظات ، وإن غامت سماؤها فإنما هو الغيم الذى لايحجب الشمس إلا لتشرق من جديد ، وتشعر فيها بقلب يسع السبعة الأقاليم طرا» كما يقول ابن الرومى ، يساجلك العطف ويجاذبك الودادة ، وماحرم يومًا من صداقة الإنسان والحياة . واستحق المكانة اللائقة به عند صديقيه الكبيرين ، ولولا ذلك لكان محلاً عنها ، مصدوفًا عن سبيلها .

تلك هى خطوط الصورة المازنى توخينا فيها الدقة والأمانة ما أمكن ، وراعينا فيها ألايغلب لون على لون إلا أن يضيف شيئًا إلى ملامح هذه الصورة تكمل به الإبانة عن هذه الشخصية ، وما كانت صورته فى عالم الواقع إلا نديدًا لصورته فى عالم الجمال ؛ حيث رثاه العقاد فى نثر وشعر .

---

(١٠٢) خمسة دواوين للعقاد ص٢٦٩ ، وقد ذكر لى أستاذى وصديقى الشاعر على الجندى – قدس الله سره – أن هذه القصيدة أبلغ ماقيل فى رثاء صديق فى الأدب العربى .